لوتس
روايات مصرية للجيب
3
خلف الجدار الأبيض
Looloo
www.dvd4arab.com

لـوتـس

فى قلب التاريخ ، تسكن حضارة مصر الفرعونية .
بكل جمالها وقوتها .
حقائقها وأساطيرها .
نورها ونارها .
من قلب النيل نبعت هذه الحضارة .
كزهرة لوتس عطرة الرائحة .
ندية الملمس .
متألقة الألوان .
وإلى قلب الماضى ، نبحر فى قارب من البردى .
نجوب أجواء زمان ولّى .
مخلفًا آثاره التى لا تزول .
شامخةً فى وجه الدهر .
وفى وجوه حاملى معاول الهدم والتشويه .
إنها زهور أينعت منذ فجر الوجود .
فتفتحت أوراقها .
وانتشرت أنوارها إلى كل الحضارات الإنسانية الأخرى .
إنها زهور لوتس .
فى قلب مصر .. القديمة ..

محمد سليمان

١ـ كاهنة ..

فجر يوم جديد ..

أول الأضواء تشق صمت المدى البعيد ، وترسل قبلات النهار السعيد على جدران المعبد الصغير ، وعلى شعار زهرة اللوتس الذهبية المنحوت فوق واجهته والأعمدة ..

فجر يوم جديد ..

النور يصبغ الأشياء بالحيوية ، وينفخ فيها من روح التألق والعنفوان ، ويربت فوق كتف العالم النائم حتى يشق عصا النعاس ، ويصحو ..

فجر يوم جديد ..

(الدلتا) عروس المملكة المصرية ، النهر فيها نهران مفترقان ومتلاقيان ، يحتضنان الحقول والأحراش كأنهما قلب حانٍ ، أو كأنهما حنان القلب الكبير ..

فجر يوم جديد ..

عيناها تراقبان كل شىء من خلف الكخل والأمانى ، تستقبلان الفجر واليوم بشهيق عميق ؛ تروم منه اختزان الدنيا كلها فى صدرها ، لكنها لا تقوى إلا على إطلاق الزفير المكتوم ، مع انفتاح العينين فى بطء ، كزهرتى ربيع ..

أو كزهرتى لوتس لهما عبير الندى ، وطلاوة الأبد ..

فجر يوم جديد ..

من هنا ، من قمة المعبد النائم فى حضن الشاطئ الغربى للنهر المقدس ، السائر نحو مصبه الأبدى فى بحر الشمال ، من هنا تراقب الدنيا كل صباح بعينيها العسليتين ..

وتبتسم ..

تتسمع أنفاس النسيم إذ تداعب وجنتيها الخمريتين ، وتلاعب خصلات شعرها المنسدل فوق الظهر كشلال أسود ثائر ، باهر الجمال ..

هنا ، فى بقعتها الصغيرة هذه يولد كل شىء من كل شىء ، ولايفنى أى شىء فى شىء ..

هنا ، ولدت وعاشت وتعلمت حتى أصبحت زهرة لوتس ..

هنا ، من هنا وإلى هنا ..

ـ (نفرو) ..

أتاها الصوت من خلف ظهرها ، فابتسمت ملتفتة إلى صاحبة الصوت الواقفة عند نهاية الدرجات الحجرية الصاعدة ، أو بداية الدرجات الحجرية الهابطة ..

ـ (نوب) ..

قالتها (نفرو) رامقة صديقتها ذات البشرة السمراء ، والضحكة البيضاء والجدائل الصغيرة من الشعر الخشن ؛ المنسدلة فى وداعة على جانبى وجهها ، بعينين ضاحكتين ، ثم إنها تابعت :

ـ .. كنت أعرف أنها أنتِ ..

قالت (نوب) وهى تدنو من (نفرو) مبادلة ضحك عينيها بالمثل :

ـ وأنا كنت واثقة من وجودك هاهنا ..

التفتت (نفرو) إلى الشمس التى تبزغ من خلف الأشجار البعيدة ، مغمغمة فى نشوة :

ـ لا أقوى على مقاومة مشهد الشروق .. إنه يثير فىّ من المشاعر ما أجهل مصدرها وكنهها حتى ... !

غمزتها (نوب) فى خبث أنثوى صريح ، وقالت واقفة إلى جوارها ، ومتأملة فى حسن وجهها الربانى :

ـ الشروق فقط ؟! ماذا عن ... ؟!

لم تكمل الشابة تاركة لصديقتها تخمين الباقى إن هى استطاعت ، فالتفتت إليها (نفرو) متسائلة بحاجبين منعقدين :

ـ ماذا عن ماذا ؟!

هزت (نوب) كتفيها ، واستدارت تراقب الشمس التى تشرق بدورها ، مغمغمة :

ـ لا شىء ، دعينا نستمتع بمنظر الشروق ، فهو يثير فىّ من المشاعر ما أجهل مصدرها وكنهها حتى ... !

لكزت (نفرو) صديقتها فى كتفها هاتفة فى ضيق :

ـ كفى عن هذا ..

ضحكت (نوب) وتظاهرت بأنها تتألم :

ـ آه .. لا تعامليني بهذا الشكل المهين من فضلك ..

قالت (نفرو) متشبثة بالجدية :

ـ عم كنت تتحدثين ؟! حاولى أن تكونى صريحة معى ..

لوّحت (نوب) بكفيها هاتفة :

ـ إن (نوب) لا تعرف الخبث ، فهى أطهر من (إيزيس) وأكثر براءة ..

حذرتها (نفرو) :

ـ إن ظللت تتحدثين هكذا فاعتبرى الصداقة بيننا منتهية ..

غمزتها (نوب) من جديد :

ـ حقًا ؟! وهل تستطيعين ؟!

عقدت (نفرو) ذراعيها أمام صدرها ، وأشاحت بوجهها عن (نوب) هاتفة :

ـ سوف ترين بنفسك ..

اقتربت (نوب) منها بوجهها وهى تغمغم باسمة ، كأنها تلاعب طفلة فى المهد :

ـ ومن سوف تلعب دور كاتمة أسرارك غيرى ؟!

هزت (نفرو) كتفيها :

ـ ليست لدى أسرار حتى أحتاج لمن يكتمها ..

(نوب) والمزيد من التودد والاقتراب :

ـ أتقسمين على هذا ؟!

استدارت (نفرو) مواجهة إياها فى عنف أخيرًا :

ـ ماذا تريدين القول يا (نوب) ؟!

ـ لا شىء ..

قالتها (نوب) ، ثم أردفت فى بساطة :

ـ .. بعض الأقاويل فقط ، أنت تعرفين فتيات المعبد حين يجتمعن ليلا وتأخذهن النميمة ، الكلمات تتساقط من هنا ومن هنا دون رادع أو رقيب أو ...

قاطعتها (نفرو) هاتفة فى حدة :

ـ اللعينات .. ماذا تقلن عنى يا (نوب) ؟!

ـ لا شىء ..

قالتها (نوب) مرة أخرى ، ثم فى بساطة أردفت :

ـ .. لا شىء يستدعى كل هذا الغضب المرتسم على ملامحك يا أختاه !

ضغطت (نفرو) أسنانها فى غيظ مستعر :

ـ تحدثى يا (نوب) ..

قالت (نوب) فى تهوين :

ـ ليس أكثر من الشهادة ببراعتك كطبيبة درست فى (أون) ، وتستطيع علاج الأمراض مهما استعصت ، ومداواة الجراح مهما كانت عميقة .. صحيح أن البعض تحدثن عن محبة واعتراف بينما أخريات تحدثن عن حسد وحقد ، لكن الـ ...

قاطعتها (نفرو) مرة أخرى فى لهجة أحدّ :

ـ هذا ليس كل شىء يا (نوب) ..

هتفت بها (نوب) فى تهوين أكثر :

ـ هدئى من روعك قليلاً يا فتاة !

وأردفت دون وعى منها :

ـ .. لو كنتِ تقصدين أنهن يتحدثن عن الفارسين اللذين تشاركيهما مهماتك خارج (منف) دائمًا ، فهن لم يتحدثن عن ذلك كثيرًا !

هتفت (نفرو) فى هجوم :

ـ لكن هذا حدث ..

أدركت (نوب) أن لسانها قد زلّ :

ـ بالفعل ولكن ..

لذا فقد حاولت التهوين من الأمر ثانية قدر استطاعتها :

ـ .. ولكن الحديث لم يمسك بأى سوء ، لن تستطيع واحدة منهن ـ مهما كانت تكن تجاهك حقدًا دفينًا ـ أن تتحدث عنك بطريقة غير مقبولة طالما أنا موجودة بينهن ..

لكن هذا لم يهدئ من روع (نفرو) :

ـ لابد أن إحداهن تحدثت عن واحد من الفارسين بشكل خاص ، أعنى .. لاريب أنك تفهمينني !

ـ أفهمك ، عزيزتى (نفرو) ..

قالتها (نوب) ، ثم تابعت ببسمة فيها من المحبة الكثير :

ـ .. فى الواقع حدث هذا ، برغم أن واحدة منا لم تر أيًا من هذين الفارسين ، فأنت تعلمين ولع الفتيات باختلاق القصص الغرامية وتصديقها ، حتى لو لم تكن تحمل فى طياتها من الحقيقة أنملة !

تشاغلت (نفرو) عن مشهد الشروق المبهر ، بالغمغمة الوجلى :

ـ ماذا قلن يا (نوب) ؟! أخبرينى بكل وضوح ودقة ..

هزت (نوب) رأسها فى تفهم ، وانطلق لسانها الحر يستطرد :

ـ كل ما نعرفه أنهما من جنود (لوتس) فى (طيبة) ، أحدهما أسمر مقاتل شجاع ، لايهاب الموت ويعشق الفروسية والمخاطر ، والآخر فنان بلا حيلة ، ضعيف البنية مرهف العينين ، تصورى أننا حتى لانعرف اسميهما !

(حورى) ، و(محب) ..

رددت (نفرو) الاسمين فى أعماقها ، صابرة على مقدمة (نوب) الطويلة ، واستطرادها الذى لاينتهى :

ـ .. كل الحكايات تحاول الربط بينك وبين الجندى الشجاع ، البعض قلن إنك تميلين له وهو لايبادلك الميل بميل .. والبعض قلن إن الفنان يميل إليك ، وإنك لاتبادلينه ميلاً بميل ، دائرة العشق الأبدية المغلقة التى ندور فيها جميعًا بلانهاية ..

انتفض قلب (نفرو) بين جوانحها ، ولم تقو على الرد ..

حاولت لكنها لم تستطع ، كأن حجرًا يجثم على لسانها ..

أو على قلبها !

ـ .. ولكن سحقًا لهن .. من أين عرفن كل هذه الأمور ؟! أعتقد أنها محض تخمينات خائبة لا أساس لها ، مجرد طريقة يزجين بها الأوقات الطويلة التى نقضيها هنا بلا عمل ..

فسد اليوم ، وذهبت متعة الشروق ، والفضل لنية (نوب) الطيبة ، إحدى النوايا التى يزخر بها الطريق إلى الجحيم ..

ـ .. وبمناسبة العمل ..

قالت (نوب) ..

ـ .. لعلّى نسيت ـ فى خضم حديثنا ذى الشجون ـ أننى هنا لأخبرك بأن المعلمة الكبرى قد أرسلت فى طلبك إلى صومعتها الخاصة منذ قليل ..

انتشلت العبارة الأخيرة (نفرو) من بحر تأملاتها اللجىّ الثائر ، فغمغمت أخيرًا :

ـ المعلمة (حتحور) ؟!

هزت (نوب) رأسها إيجابًا ، وغمزت صديقتها للمرة الثالثة قبل أن تقول :

ـ يبدو أنها مهمة جديدة مع الفارسين إياهما ..

ـ ومنذ متى لم يكن الأمر كذلك ؟!

صدر الصوت الأفعوانى الرخيم عند نهاية الدرجات الحجرية الصاعدة ، أو بداية الدرجات الحجرية الهابطة ..

لا فارق !

التفتت الصديقتان إلى الصوت ، وغمغمتا فى وقت واحد :

ـ (خنت) ؟!

شابة نحيفة ذات عينين واسعتين ، وشفتين رفيعتين ، وشعر خفيف متوسط الطول وكالح الصفرة ، تقف عاقدة ساعديها أمام صدرها فى تحدٍّ ، وتقول :

ـ إن (نفرو) هى الوحيدة التى لا تعانى البطالة فى معبد (لوتس) هذا ..

سألتها (نوب) فى استياء :

ـ هل كنتِ تتجسسين علينا يا (خنت) ؟!

أجابتها (خنت) وقد ضاقت عيناها لكنهما ظلتا واسعتين :

ـ لا تستخدمى مسميات مخيفة إلى هذا الحد يا عزيزتى ، تستطيعين القول بأنى كنت أستمع إليكما بالصدفة المحضة ..

سألتها (نفرو) فى سخرية بعيدة نوعًا :

ـ هل تهوين متابعة مشهد الشروق أنت الأخرى أم ماذا ؟!

نظرت (خنت) إلى الشمس التى استدارت فى السماء من بعيد ، وقالت فى غير اكتراث :

ـ لا أهوى الأشياء التى تتكرر يوميًا !

سألتها (نوب) فى سخرية قريبة نوعًا :

ـ حتى النميمة ؟!

ـ الأخبار تجدد نفسها دون تكرار يا عزيزتى كما تعلمين ..

قالتها (خنت) ، فعاجلتها (نفرو) بسؤال هجومى :

ـ الأخبار الصادقة أم الكاذبة ؟!

أجابتها (خنت) كأنها تتعمد استفزازها :

ـ لكل من النوعين سحره الخاص !

ـ ليكن ..

قالتها (نفرو) ، وتابعت متوجهة إلى الدرجات الحجرية الواقفة عندها (خنت) :

ـ .. سنتحدث فى هذا لاحقًا ، عندما أرى فيم تريدنى المعلمة (حتحور) ..

غمغمت (خنت) فى لهجة مفعمة بالغل الدفين :

ـ المعلمة الكبرى تطلب دائمًا تلميذتها المفضلة ، وكأن لا وجود فى المعبد لغيرها ..

توقفت (نفرو) قبل أن تهبط الدرجات وقد اخترقت الهمهمة ـ برغم الصوت الخفيض ـ أذنها ، فالتفتت إلى (خنت) سائلة :

ـ هل تقولين شيئًا عن المعلمة الكبرى ، عزيزتى (خنت) ؟!

أشاحت (خنت) عنها بيدها هاتفة :

ـ كلا .. لا شىء ألبتة ..

ـ ظننتك تريد منى أن أبلغها بشىء ..

قالتها (نفرو) بلهجة ذات مغزى غير خاف ، فصمتت (خنت) وأخذت ترمقها بعينين يلوح فيهما شرر الشر ، حتى اختفت (نفرو) أسفل الدرجات وهى تقول :

ـ .. حقًا ، إن اللسان هو أبشع المناطق فى جسم الإنسان كما درسنا فى (أون) !

غابت (نفرو) ، فطفح وجه (خنت) بالاحمرار حتى كاد ينفجر بالدماء وبالحقد ..

رأتها (نوب) لكنها آثرت الصمت ..

الصمت أفضل ما يمكنك أن تفعله ، فى مواجهة الأفاعى !

★ ★ ★

صومعة المعلمة الكبرى (حتحور) ..

الصمت ، والظلام ، ورائحة البخور ..

ألا يذكرنا هذا بشىء ؟!

تقدمت (نفرو) واقفة تنظر إليها فى صمت وإجلال ، بعد أن انحنت قائلة :

ـ السلام على المعلمة الكبرى ..

المعلمة الكبرى (حتحور) تجلس على مقعد مرتفع عن الأرض قليلاً .. المقعد من الخشب المطعم بالأصداف .. بسيط الصناعة لكن منظره وحده يبعث على الراحة ..

المعلمة الكبرى (حتحور) امرأة خمسينية ، يخالط بياض شعرها القصير سواده ، وجهها مستدير كطبق من البلُّور ، قوامها فيه بعض البدانة ، ثوبها أسود مطرز بالنقوش الهيروغليفية .. على حجرها برديات مفرودة .. وعلى الأرض أمامها مبخرة يتصاعد منها العبق فى هيئة دخان أبيض محترق ، والضوء صادر من اللامكان ؛ لو كان هذا بدوره يذكرنا بشىء ما ..

المعلمة الكبرى (حتحور) لها ملامح لا يمكن وصفها إلا بالطيبة .. بالأمومة .. خطوط بديعة تشكل عينين من الوداعة ، وأنفًا من الرحمة ، وفمًا من السماح ، وذراعين من الحنان الغارق فى الحنان ..

المعلمة الكبرى .. (حتحور) ..

ـ السلام عليك يا ابنتى البارة ..

الصوت أيضًا ، والنداء ..

رفعت (نفـرو) عينيهـا إلـى النقش البـارز علـى الجـدار الحجرى خلف المعلمة الكبرى ، والذى تشكّل ظـلال الضـوء الشاحب عليه نقشًا غائرًا لملامـح وجـــه الإلـه (حتحور) ، والدة الآلهة المصرية الفرعونية القديمة ..

الأم الرءوم ، والبقرة المقدسة ..

هل تتشابه الملامح كما تتشابه الأسماء ؟!

تفنى الأعمار وتبقى الأسئلة ..

ـ .. هل تقضين وقتًا طيبًا بعد عودتك من (فينيقيا) ؟!

سألت (حتحور) ، فأجابت (نفرو) :

ـ أستطيع قول هذا يا معلمتى ، إن الأوقات هنا طيبة ما دامت تؤدى دائمًا إلى رحيل آخر ..

ابتسمت (حتحور) نصف ابتسامة ، وقالت :

ـ أفهم هذا ، لكن هذه المرة لا يوجد رحيل ..

استعصى الأمر على فهم (نفرو) :

ـ ما معنى هـذا ؟! ألم يكـن الاستدعاء هـذه المـرة بشأن عمل ؟!

قـالت (حتحـور) وقـد تلاشـت بسـمتها النصفيـة علـى الفور :

ـ الاستدعاء دومًا بشأن عمـل .. لكن العمـل هذه المرة لا يستوجب منك الرحيل ..

استوعبت (نفرو) الأمر جزئيًا :

ـ معنى هذا أن العمل هنا فى (منف) ؟!

ـ تمامًا ..

ترددت (نفرو) للحظة لكنها سألت :

ـ وحدى ؟!

ـ زهرات اللوتس لا تعملن منفردات ، هذهِ قاعدة لا يجب أن تُنسى ..

ثم إن (حتحور) أردفت :

ـ .. إن زهـرتى الجنوب فى طريقهما الآن إلى الشمال ، إلى هنا ..

راقت الفكرة لـ (نفرو) فعرفت طريقها إلى لسانها :

ـ إنهما يرحلان إلىّ هذه المرة ، ليس الأمر ككل مـرة إذن !

ـ رؤية لا بأس بها على الإطلاق ..

كان لا بد لـ (نفرو) أن تسأل مثل كل مرة :

ـ وماذا سنفعل ؟!

وكان لا بد لـ (حتحور) أن تجيب فى اقتضاب مثل كل مرة أيضًا :

ـ لقد اختفت الكاهنة (ماعت) ..

ارتفع حاجبا (نفرو) وهى تهتف مرتاعة :

ـ (ماعت) ؟!

هزت (حتحور) رأسها بالإيجاب ، ثم قالت :

ـ أجل ، أيقونتنا الأغلى ..

توترت (نفرو) وسألت :

ـ وكيف حدث هذا ؟!

أجابتها (حتحور) برغم التوتر :

ـ لا نعلم بالتحديد ، هذا ما يجب أن تعرفوه ..

سألت (نفرو) وتوترت أكثر :

ـ وهـل اختفـت من صـومعتهـا المنعزلـة فى معبـد (أوزوريس) ؟!

ـ كلا ..

ثم إن المعلمة (حتحور) أوضحت :

ـ .. لقد اختفت خلف الجدار الأبيض !

انعقد حاجبا (نفرو) ، وقـابلت (حتحـور) هـذا الانعقـاد بالصمت ..

العيون وحدها قالت الكثير مما تعجز عنه الألسن ..

ـ خلف الجدار الأبيض ..

غمغمت بها (نفرو) لنفسها ..

ولم تعرف (حتحور) إن كانت تلميذتها تسأل ..

أم تجيب !

★ ★ ★

٢ ـ أحـــراش ..

شمس النهار الطليقة تنعكس قرصًا من ذهب على صفحة الماء الراكد ، وأعواد البوص الكثيفة تحجب عن العيون الكثير ..

زورق صغير من البردى ، يتهادى راقصًا فى هدوء بين الأحراش ، وصفير منغوم لأغنية شعبية شهيرة ..

ثم الغناء :

(.. حبيبتى بلا نظير

أجمل النساء هى

مضيئة إذ أهلت كنجمة براقة فى ليل عيد

عيناها آسرتان وشفتاها ياقوت أحمر

والشعر جواهر سوداء تبرق فى ضوء الليل

وحديثها منمق أثير ..)

ثم هتاف زاجر :

ـ جعلت كل الأسماك تهرب با (محب) !

ثم غمغمة بريئة :

ـ ما ذنبى إن كانت الأسماك تفتقد إلى الـذوق الموسيقى يا عزيزى (حورى) ؟!

الزورق يتهادى ..

على طرفه يقف الأسمر ـ (حورى) ـ ذو العضلات المفتولة والشعر المجعد ، يبرق جلده متوهجًا تحت الشمس ، وهو يمسك بعصا خشبية رفيعة تنتهى بحافة من المعدن الحاد المغموس فى المياه ..

وعلى طرفه الآخر يجلس النحيل ـ (محب) ـ ذو اللحية الخفيفة والعينين الخضراوين ، تقبض أصابعه الطويلة على المجدافين المغموسين فى المياه ، وهو شارد فى المجهول يغنى فى شجن واستمتاع ..

الزورق يتهادى ، فيما يدفع (حورى) العصا فى الماء أكثر بقوة ، وقد لاحظ سمكة تتلاعب فى الجوار ، لكنه فى النهاية أخرج النصل الحاد دون أن يعلق به شىء ، فغمغم فى ضيق :

ـ يبدو أن النهار سينقضى دون أن أمسك بسمكة واحدة ..

قال (محب) مواصلا التجديف الهين :

ـ مفتاح الصيد الوفير صبر أوفر ، هكذا تعلمنا فى معبد (لوتس) ..

قال (حورى) فى ضيق أشد :

ـ أحفظ هذه القواعد جيدًا بقدر عجزى عن تطبيقها ..

ابتسم (محب) ساخرًا وهو يغمغم :

ـ ماذا أقول أنا إذن ؟!

نظر (حورى) إلى الماء مغمغمًا :

ـ لأحاول مرة أخرى ، فقط حاول ألا تغنى قليلاً يا (محب) ..

ـ سأبطل لك حجتك لأرى إن كان الغناء هو ما ينحسك حقًا ، أم هو مجرد حجة واهية !

ـ حتى لو لم أصطد شيئًا فسأكون المستفيد فى كل الأحوال ..

قالها (حورى) فى صوت خفيض ، ولم يكد يتم عبارته حتى لاحظ سمكة أخرى ـ أو لعلها هى الأولى ـ تسبح فى مجال بصره ، فغرس عصاه فى الماء بمنتهى القوة والسرعة ، وأخرجها هذه المرة بسمكة تتلوى بعد أن اخترقها النصل الحاد ..

ـ .. أرأيت ؟!

قالها (حورى) فى فخر وهو يضع العصا والسمكة فى مجال (محب) البصرى، فقال الأخير متبرمًا:

ـ إن كنت تظن أن هذا سيمنعنى من الغناء، فأنت واهم حقًا..

هز (حورى) كتفيه ملقيًا بالعصا فى قاع الزورق وهو يقول:

ـ غنى كما يحلو لك الآن، فقد حققت متعتى من الصيد وانتهى الأمر..

نظر (محب) إلى السمكة المتلوية لافظة أنفاسها الأخيرة ـ عبر الخياشيم ـ فى طرف العصا الحاد، وغمغم فى أسى حقيقى:

ـ مسكينة!

ثم إنه نهض تاركًا المجدافين، ومخاطبًا (حورى):

ـ دورك الآن فى التجديف يا عزيزى..

جلس (حورى) فى مكانه ممسكًا بالمجدافين:

ـ كنت أنتظر أن تقولها، فذراعى تيبستا من قلة العمل..

هز (محب) كتفيه، وسار نحو طرف الزورق الآخر جالسًا يتأمل الأحراش الكثيفة من حوله، ويفكر فى كل شىء ولا شىء فى نفس الوقت..

هل كان يفكر فيها؟!

وهل يستطيع الإنكار؟!

(نفرو)..

لماذا يراها فى كل ما حوله؟!

لماذا تسد على حواسه كل شمس وهواء وحرية؟!

لماذا تصر على السفر فى دمه؟!

لماذا تستوطن قلبه بهذه القسوة، وتبتعد عنه على أرض الواقع بقسوة أشد؟!

عليه أن يحارب صورتها المقتحمة هذه، ولكن كيف؟!

كيف وهو يراها فى كل ما حوله؟!

كيف وها هى الأحراش تنشق عن صورتها فجأة، فى فجوة بين الأعواد الخضراء، تقف باسمة على متن طوف من الأخشاب المترابطة، فاردة ذراعيها كأنها تطير فى الهواء، وباسمة هذه البسمة الساحرة الملائكية؟!

وجد (محب) عينيه تضحكان فى سرور ، وانغمس فى وهمه أكثر إذ سمعها تقول :

ـ مرحبًا يا (محب) ..

وجد (محب) لسانه يتحرك بالقول وبالشوق :

ـ أهلاً يا ..

ـ (نفرو) ؟!

صوت (حورى) من خلفه ..

التفت ليرى (حورى) المجدف ينظر إلى نفس الجهة فى داخل تلك الفجوة بين الأحراش ، وعاد ينظر ليرى (نفرو) واقفة كما هى ، فأيقن أنه ليس واهمًا ..

إنها (نفرو) الواقفة هناك بالفعل ، بشحمها ولحمها !

ـ أجل هى أنا ، مرحبًا بكما فى مدينتى (منف) بين أحراش (الدلتا) ومستنقعاتها ..

قالتها فى صدق ، وغمغم (محب) دون إرادة منه :

ـ إنها أنتِ بالفعل إذن !

ابتسمت قائلة وقد سمعت غمغمته الخفيضة :

ـ ومن يمكن أن يكون غيرى يا عزيزى ؟!

قال (حورى) ببساطة دون أن تحمل كلماته أى انفعال :

ـ إذن فها نحن الثلاثة نلتقى من جديد ..

أومأ (محب) برأسه مغمغمًا بإرادة منه :

ـ نعم ، نحن الثلاثة ..

قالت (نفرو) وبسمتها تتسع :

ـ لابد أنهم مازالوا مصرين على أن لدى كل منا ماينقص الآخر ..

غمغم (محب) مجددًا ، وقد استهوته لعبة الحوار الذاتى هذه على ما يبدو :

ـ إنهم دائمًا يرون ما يحلو لهم ..

هنا تساءل (حورى) على الفور ، متناسيًا كل شىء عدا المهمة التى أتى من أجلها :

ـ ألم يجدوا الكاهنة (ماعت) حتى الآن ؟!

هزت (نفرو) رأسها بالإيجاب :

ـ إنهم ينتظروننا لنفعل ..

ترك (محب) لعبة الحوار الذاتى منخرطًا فى الحوار الجماعى :

ـ قالوا لنا إننا سنعرف كل التفاصيل عندما نصل إلى هنا ، فهم لم يخبرونا فى (طيبة) عن شىء إلا أنها اختفت ..

وتابع (حورى) بعده :

ـ أظنهم كلفوك بذلك ، أعنى أن تشرحى لنا كل شىء ..

لم تخبُ بسمتها ، بل أضاءت أكثر مع قولها والإيماء رأسها :

ـ بالفعل ، برغم أنه لا يوجد الكثير مما يقال ..

ثم إنها قفزت من طوفها الخشبى إلى داخل زورق البردى الذى اقترب منها بشدة ، ليهتز الاثنان معًا ـ الطوف والزورق ـ وهى تقول :

ـ .. سأصحبكما فى الزورق ، فلا أظن طوفى الصغير بقادر على حملنا جميعًا ..

هز (حورى) كتفيه قائلاً :

ـ المهم أنك تعرفين وجهتنا فى كل الأحوال ..

وقال (محب) هازًا كتفيه بدوره :

ـ أجل ، تعرفين وجهتنا التى نجهلها !

بسمة تتسع مرة أخرى :

ـ أعرف ، فلا تخشيان شيئًا ..

ثم إنها جلست فى منتصف القارب ، وسوت خصلات شعرها النافرة قبل أن تقول :

ـ .. أما فيما يتعلق بالكاهنة (ماعت) فالأمر غريب بالفعل ..

تساءل (حورى) مهتمًا وهو يبتعد بالزورق عن الطوف الخشبى :

ـ هل اختفت من صومعتها ؟!

علّق (محب) :

ـ ستكون هذه سابقة فريدة من نوعها ، فالكهنة لا يختفون فى صوامعهم بهذه البساطة ..

استرخت (نفرو) فى جلستها على أرضية الزورق ، ثم قالت :

ـ كلا ، الكاهنة (ماعت) لم تختف فى صومعتها ، بل خلف الجدار الأبيض ..

ولما رأت العينين المتسائلتين تحدقان فيها ، فسرت على الفور :

ـ .. تعرفان أن الكاهنة (ماعت) امرأة طاعنة فى العمر الآن ، معمرة هى ، شهدت الكثير من العهود بدءًا من أواخر عهد احتلال الرعاة لأراضينا مرورًا بعهد التحرير انتهاء باليوم ، وفى كل هذه العهود كانت خير رمز لإبطال الشر ، ونصرة الخير .. أزكت روح المقاومة إبان الاحتلال ، وكانت بطلة العدل والحق وإعادة الإعمار فى أثناء وبعد التحرير .. تعطف على الفقراء وتساعد المحتاجين وتفصل بين المتخاصمين .. تمسح الدموع وترأب الصدوع وتحقق الأمنيات وتنشر السعادة فى كل دار ؛ لذا أحببناها وأكبرناها جميعًا ، واحتلت من القلوب أسمى المكانات سواء بالنسبة للعامة أو الصفوة .. وليس لها من أعداء معروفين بأى حال ، فحتى أعداء البلاد احترموها وأجلوها ..

سأل (محب) وقد أثرت فيه الكلمات :

ـ يبدو أنك تكنين لها مشاعر خاصة .. أليس كذلك ؟!

نظرت إليه (نفرو) قائلة :

ـ ومن منا لا يعشق (ماعت) ؟! إنك لم تسعد عينيك برؤيتها من قبل ، ولو فعلت لعرفت وحدك عم أتحدث ..

قال (محب) فى تبسط وبساطة :

ـ لقد سمعت عنها الكثير ، وأحببتها أذنى قبل أن تحبها عينى ..

لوحت (نفرو) بسبابتها وقالت :

ـ ليس من رأى كمن سمع ، كن واثقًا من هذا يا عزيزى ..

اخترق (حورى) حوارهما :

ـ كنا نتحدث عن اختفائها ..

لم يكن أمام (نفرو) إلا أن تستمر :

ـ منذ سنين طويلة لم تغادر (ماعت) عزلتها ، فقد نأت فى صومعتها عن كل متغيرات العالم الفظيعة من حولها وحولنا .. امرأة بطهرها ونقائها كانت عاجزة عن مجاراة كل هذا السواد المحيط من غدر وشر وخيانة وخداع ، لهذا ابتعدت .. وظلت رمزًا ومزارًا لكل من ينشد الاقتراب من هذه القيم العظيمة ..

هز (محب) رأسه فى تفهم :

ـ هذا أوضح من أن يُفسّر !

استمرت (نفرو) :

ـ بالأمس غادرت (ماعت) صومعتها فى معبد (أوزوريس) ، وفوجئ بها الكهنة والحراس بينهم ، تطلب بنبرة واهنة أن تذهب فى زيارة إلى الجدار الأبيض ..

قطب (حورى) قائلاً :

ـ اليس هذا هو اللقب الذى تطلقونه على مدينتكم هذه ؟!

تأتأت (نفرو) نفيًا ثم قالت :

ـ نعم ، ليس نحن من نطلقه .. إنه الاسم الذى اختاره مؤسس هذه المدينة لها ، أول ملوك المملكة المصرية العظام .. لا أظنكم تجهلونه ..

غمغم (محب) وقد أغمض عينيه فى إجلال :

ـ (مينا نعرمر) ، موحد القطرين ..

وهز (حورى) رأسه قائلاً فى لامبالاة :

ـ سيان ، المهم أن هذا هو لقب (منف) بالفعل ، كما نسمى نحن (طيبة) : المدينة ذات المئة باب ..

قالت (نفرو) دون أن تكترث لملاحظته :

ـ الجدار الأبيض ليس لقب مدينتنا فقط ، لكنه الاسم الذى اختاره الملك العظيم (مينا) لقلعته التى كانت أول ما بنى فى (منف) ..

هنا سأل (حورى) وقد عيل صبره :

ـ وأين اختفت الكاهنة (ماعت) تحديدًا ؟!

ابتسمت (نفرو) وعادت تقول ، كأنما لتستفز اندفاع (حورى) فقط :

ـ خلف الجدار الأبيض ..

ثم إنها فسرت على الفور متابعة :

ـ .. لقد طلبت الكاهنة من الواقفين حولها أن تذهب فى زيارة أخيرة إلى هذه القلعة القائمة عند حدود المدينة ، وقالت بالحرف الواحد (هناك يكمن الخلاص) .. ظلت تردد هذه العبارة دون أن يفهم أحد ما ترمى إليه من ورائها ، وبالطبع تنافس الجميع على تلبية رغبة الكاهنة (ماعت) التى يتمنى أى منا خدمتها ..

ردد (محب) فى بطء عبارة الكاهنة ، كأنه يتذوقها على لسانه :

ـ هناك .. يكمن .. الخلاص !

وقال (حورى) محتثًا (نفرو) على الإكمال :

ـ وذهبت الكاهنة إلى قلعة الجدار الأبيض ..

فأكملت (نفرو) غير مانعة نفسها من الابتسام :

ـ اصطحبها إلى هناك عدد من حراس المعبد وكهنته ، لم يكن الموكب كبيرًا حتى لا يلفت إليه الأنظار ؛ وحتى لا يتكالب العامة على الكاهنة التى لا تحتمل صحتها شيئًا كهذا .. المهم أن الموكب قد بلغ القلعة بسرعة ، وهناك صعدوا بالكاهنة (ماعت) إلى بهو الملك (مينا) شخصيًا .. غنى عن الذكر طبعًا أن القلعة منذ عشرات ـ وربما مئات ـ السنين التى خلت مهجورة ، ليس فيها من الأثاث شىء ، ولا حياة فيها إلا على نقوش الجدران المطموسة أغلبها ؛ بسبب العبث المتكرر بها من قبل أى عابر سبيل ..

بدأت القصة تستحوذ على اهتمام (محب) ، الذى قال فى تساؤل كأنه طفل تروى له أمه حكاية ما قبل النوم :

ـ ثم ماذا ؟!

واصلت (نفرو) حكايتها :

ـ ثم طلبت (ماعت) من مصطحبيها أن يتركوها وحدها أمام بقايا عرش الملك (مينا)، وامتثل الحراس والكهنة، فهبطوا ينتظرونها أمام بوابة الجدار الأبيض، ومر وقت طويل دون أن يصدر عن (ماعت) أى صوت أو حراك؛ حتى تسلل القلق إلى الواقفين جميعًا .. أرسلوا واحدًا منهم بعد طول مفاوضات ليستطلع الأمر فوجد كل شىء فى القاعة على ما يرام، اللهم إلا أن (ماعت) لم تكن موجودة فى أى ركن من أركان البهو ..

هرش (حورى) فى شعر رأسه المجعد مغمغمًا :

ـ ربما ..

قاطعته حكاية (نفرو) :

ـ فتشوا القصر ذراعًا ذراعًا، ومشطوه أكثر من مرة دون جدوى .. لم يكن هناك أى أثر لها أو لأى حياة أخرى فى القصر، أعنى خلف الجدار الأبيض ..

هرش (محب) فى شعر لحيته الخفيفة متسائلاً :

ـ ماذا يمكن أن يعنى هذا ؟!

زفرت (نفرو)، وتلاشت بسمتها قائلة :

ـ قد يعنى أى شىء، هذا ما يجب أن نستكشفه بأنفسنا ..

أدلى (حورى) باقتراحه :

ـ أغلب الظن أنها خُطفت دون أن يشعر الواقفون أمام القصر بأى شىء ..

وفندت (نفرو) الاقتراح :

ـ من سيفعل هذا ؟! وماذا سيجنى من ورائه ؟! إن هذا أبعد الاقتراحات عن الحسبان لو أردت رأيى ..

تبسم (محب) فى شحوب سائلاً إياها :

ـ ماذا تعتقدين إذن ؟!

أدلت (نفرو) باقتراحها :

ـ أعتقد أنها اختفت هناك بمحض إرادتها !

وحاول (حورى) أن يفند الاقتراح :

ـ وكيف ستفعل هذا ؟! إنه اقتراح خيالى بعيد لـو أردتمـا رأيى ..

التفتت (نفرو) إلى (محب) سائلة :

ـ ماذا تقترح أنت يا (محب) ؟!

صمت (محب) مليًـا بعينيـن تلمعـان ، قبـل أن يدلـى باقتراحه فى النهاية :

ـ أعتقد أنها لم تختفِ !

لمح النفور والاستنكار يشعان من حوله ، فأسرع قبل أن يتحولا إلى كلمات مسمومة :

ـ .. لا تسألانى كيف ، لكنى أشعر حقًا بما أقول ..

غمغم (حورى) لنفسه مستنكرًا :

ـ ماذا جنيت فى حياتى حتى أرافق فى كل مرة هذين الـ ؟!

وغمغمت (نفرو) لنفسها متعاطفة :

ـ أحب الكلمات التى تحمل شعورًا ما ..

ولم يغمغم (محب) لنفسه بشىء ، وإن تلاشى الشحوب من وجهه ، وبقيت الابتسامة ساطعة كألف شمس أو أكثر ..

ـ ماذا الآن ؟!

تساءل (حورى) بعد أن ران الصمت برهة ..

ـ .. هل نسير فى الاتجاه الصحيح ..

هزت (نفرو) رأسها أن :

ـ أجل ..

وأشارت إلى المدى الذى يقترب أكثر كلما جدف (حورى) قائلة :

ـ إن الجدار الأبيض يقترب ..

عيون شاخصة ..

ـ .. أو لعلنا نحن الذين نقترب منه ..

الجدار الأبيض ..

قال (حورى) :

ـ سيان ..

وجدف بسرعة أكبر وقوة أعظم ، نحو البقعة البعيدة القائمة على تل قصير ، والتى تقترب منهم فى اطراد ، أو لعلهم هم الذين يقتربون منها .. سيان !

ـ يا لبراعة الأجداد ..

غمغم بها (محب) وعيناه الخضراوان تلتهمان القلعة المقتربة ، ذات الجدارن التى بدأ لونها الأبيض فى التآكل ، كاشفًا عن أعماقه الحجرية الصلدة ..

القلعة ذات السور الشاهق الارتفاع ، والمشرفة جدرانها على صفحة النهر المقدس ..

قلعة (مينا نعرمر) ، ملك مصر وموحد الوجهين ..

ـ هنا اختفت الكاهنة (ماعت) ..

أشارت (نفرو) إلى القلعة التى ما زالت تقترب وتقترب ، مع ضربات (حورى) فى الماء أكثر وأكثر ،

وقالتها فى تصميم بينما النسيم يلاعب شعرها المنسدل خلف ظهرها :

ـ .. وهنا لابد أن نعثر عليها ..

ثم إنها توقفت ، لتردف فى تصميم أعظم وأعظم :

ـ .. هنا ، خلف الجدار الأبيض !

★ ★ ★

٣ـ قلعـــــة..

آخر المعارك فى سبيل الوحدة ..

هل كان من الضرورى أن تسيل كل هذه الدماء ؟!

السؤال يطن كسرب نحل فى عقل (مينا نعرمر) ، بعد أن سقطت (بوتو) عاصمة مملكة الشمال ، التى تتخذ من ثعبان الكوبرا المرعب (الصل) رمزًا لها ، ومن زهرة نبات البردى شعارًا لهـا ، ومـن التـاج الأحمـر (دشرت) عنوانًا ملكيًا ..

ها هو ذا النهر المقدس يتخايل مع الملك المظفر وسط الأحراش والنباتات الطويلة الرفيعة ،

الملك الذى سيمنح نفسه لقب (عحا) ؛ أى المقاتل المنتصر باللغة الهيروغليفية ..

تذكر الملك (مينا نعرمر) كل شىء فى لمحة بصر خاطفة ، فى ومضة برق ساطعة ، فى لحظة أو أقل ..

سنين طويلة من الكفاح ، تبدأ من والده الملك العقرب الذى لفظ أنفاسه قبل أن يتحقق حلم الوحدة ، كان يقول

دائمًا إن الجنوب مظلوم ، يقاسى أهله حرارة الشمس اللاهبة وصعوبة العيش فى ظروف متوحشة ، بينما ينعم أهل الشمال بالمعيشة الرغدة وسط المزارع العامرة والمياه الجارية ..

هل هذا عدل ؟!

أين (ماعت) ربة العدل لترى هذا ؟!

واستمر الزحف إلى الشمال بعد وفاته ، بقيادة ابنه (مينا) الذى وضع فوق رأسه التاج الأبيض (حدجت) لمملكة الجنوب .. المملكة التى اتخذت من (نخب) عاصمة سياسية ومن (نخن) عاصمة دينية ، ومن أنثى النسر (نخبت) رمزًا ، ومن زهرة اللوتس البنفسجية شعارًا ..

لكن اليوم ينتهى كل شىء ..

هل كان من الضرورى أن تسيل كل هذه الدماء ؟!

نظر (مينا نعرمر) إلى كل ما حوله ، وتخيل نفسه بعد أيام يرتدى تاج الوجهين المزدوج بلونيه الأحمر والأبيض ، وبالألقاب ترصع اسمه على الجدران والمنحوتات :

(مينا نعرمر) .. موحد القطرين .. وملك الأرضين .. وصاحب التاجين ..

ثم إنه فكر ، هنا ستكون عاصمة البلاد الموحدة ..

هنا عند رأس الدلتا ..

سيطلق عليها اسم (الجدار الأبيض) ..

(من نفر) أى الميناء الجميل كما ستسمى ابتداءً من عهد الأسرة السادسة ..

(منف) كما سيسميها العرب ، و(ممفيس) كما سيطلق عليها الإغريق فيما بعد ..

مركز البلاد سيكون هنا ، وستحاط العاصمة بسور أبيض لحمايتها من الثورات والغزوات مهما تكن الأمور صعبة ، حتى يتيح لها هذا الأمان أن تكون عاصمة أبدية للبلاد ..

لم يكن (مينا) يعرف أنها ستظل عاصمة لمدة عشرة قرون كاملة ، لكنه كان يطمح فيما هو أكثر بلاريب !

ونظر (مينا) إلى التبة القريبة ، المشرفة على صفحة المياه الراكدة ، ثم فكر :

هنا سأبنى مقر الحكم ..

قلعة هائلة .. بيضاء .. أطلق عليها (الجدار الأبيض) ..

سآمر ببنائها من الغد ..

بل من الآن ..

فقط عندما أرى ذلك الأسير الغريب الأطوار الذى يتحدثون عنه فى أثناء المعركة ..

الأسير الذى يدعى أنه لايتبع أيًا من الطرفين المتقاتلين !

وأرسل (مينا نعرمر) بصره إلى خيمته القريبة ، التى نصبوها وسط ميدان المعركة المنتهية ..

ثم حسم أمره ..

وخفَّ إليها مسرعًا بين الجثث والأسلحة ..

★ ★ ★

رسى زورق البردى أسفل التبة المنخفضة ، التى يطل من أعلاها الجدار الأبيض كوحش أسطورى حجرى جبار ، وبسرعة بدأ جنود لوتس الثلاثة فى القفز من على متنه إلى شاطئ المياه الراكدة الملتقى بنباتات البر ورماله ..

كادت (نفرو) تتعثر فى قفزها من على الزورق ، لكن ذراع (حورى) القوية منعتها من السقوط على ظهرها فى اللحظة الأخيرة ..

ـ خذى الحذر ..

هتف بها (حورى) ، فصمتت محدقة فى وجهه وهى مستندة على ذراعه الأسمر ، بينما أشاح (محب) بعينيه عن المشهد شاخصًا إلى القلعة فوق التبة ..

ـ أشكرك ..

قالتها وهو تعتدل واقفة ، رافعة ذيل ثوبها الطويل الذى ابتل بالماء واتسخ بالطمى ، فأعرض (حورى) عنها سائرًا خلف (محب) كأنه يهرب ملسوعًا من شىء ما ..

ـ .. كم أكره ثيابى عندما تتسخ ..

هتفت بها (نفرو) مستاءة وهى تراقب طرف الثوب ، متشاغلة عنه بقلبها المنتفض بين الضلوع ، كأنها ـ على طريقتها ـ تهرب من شىء ما أيضًا ..

سار الثلاثة صاعدين أعلى التبة ، يتصدرهم (محب) الذى غمغم ملتهمًا الجدران بعينيه :

ـ عبقرية معمارية بالقياس إلى طول الزمن ..

سار الثلاثة ، حتى بلغوا قمة التبة ..

سار الثلاثة ، حتى توقفوا أمام باب القلعة المفتوح ..

لا أبواب هنا ، لا نوافذ ، لا حراس ..

ـ لماذا يبعث مرأى هذه القلعة فى نفسى كل هذا الرعب ؟!

غمغمت بها (نفرو) محدثة نفسها ، واندفع (محب) داخلاً على الفور ، و(حورى) فى إثره ، فتجاوزت رعبها على الفور وتبعتهما ..

قاعة الملك (مينا نعرمر) ..

ـ قاعة الحكم ..

نطق بها (محب) وهو يجول بعينيه فى البهو الواسع ذى الأعمدة ، التى تحمل سقفًا شاهق الارتفاع .. العرش العتيق فى المنتصف منحوت فى حجر ، تغطيه الأتربة والعناكب وتتجول عبر زواياه الجعارين .. الأتربة والعناكب والجعارين تستوطن كل شىء آخر فى القاعة وربما فى القصر كله ، يد الزمن التى لم تترك شيئًا فى القلعة أو فى خارجها ..

يد الزمن ..

خلف العرش حائط أبيض يحمل عشرات النقوش المطموسة ، وفى الوجه صورة منحوتة بدقة لوجه الملك (مينا نعرمر) الذى يضع على رأسه تاج الوجهين ، ويمسك فى يده بصولجان الحكم والقوة ..

عينان واسعتان ناعستان ممتلئتان بالقوة وبالعنفوان .. أنف أقنى لا هو بالكبير ولا هو بالصغير لكنه يحمل فى تعاريجه شموخًا وإباء .. فم جنوبى غليظ واسع قليلاً .. عظام الوجه بارزة وعضلات الكتف والرقبة مشدودة .. لحية خفيفة على الوجنتين والذقن ..

ـ (مينا نعرمر) ..

غمغمت بها (نفرو) فى تبجيل ، بأنفاس مبهورة ، فانبعثت القشعريرة فى أوصال الثلاثة ..

قال (محب) مشيرًا إلى الصورة :

ـ انظروا إلى عظمة الفن والفنان ، ها نحن أولاء ننظر إليه برغم مئات السنين التى مرت على موته واندثاره ..

قال (حورى) دون أن ينجح فى إبعاد عينيه عن الصورة المتقنة :

ـ التاريخ لا يموت يا (محب) ..

وأردف محاولاً التصرف بعملية يهواها :

ـ .. هنا اختفت الكاهنة (ماعت) إذن ..

تلفتت (نفرو) حولها وقالت :

ـ لا أرى من منافذ ها هنا إلا المدخل الوحيد الذى دلفنا منه ، لا أبواب أخرى ولا نوافذ والسقف مصمت .. وأظنهم قد دلفوا من نفس المدخل أمس أيضًا ..

هز (حورى) كتفيه مشيرًا إلى الجدران من حوله :

ـ وما أدراك بالأبواب والممرات السرية ؟! إن الملوك يهوون هذه الألاعيب الغريبة لو كنت لا تعلمين ..

هزن كتفيها تقلده وقالت :

ـ ومن أين لى أن أعلم وأنا لم أكن ملكة من قبل ؟!

قال (محب) من أمام العرش العتيق :

ـ آثار الأقدام تنتهى عند العرش !

نظرا إليه ـ (حورى) و(نفرو) ـ وقد ند السؤال عنهما فى آن واحد :

ـ ماذا ؟!

أشار (محب) إلى الأرض أسفل العرش، وفسر بقوله :

ـ انظر، إن الأرض مكسوة بطبقة كثيفة من التراب .. وها هى ذى آثار نعال الكهنة، لابد أن الكاهنة (ماعت) كانت تنتعل واحدًا منها !

اقترب منه (حورى) محاولاً النظر إلى حيث يسير :

ـ أرنى ..

اعترض (محب) طريقه بذراعه موقفًا إياه، ولما حدجه (حورى) بنظرة استنكار قال :

ـ كنت ستفسد الآثار !

ثم إنه أشار إلى الأرض موضحًا :

ـ انظر، لابد أن الكاهنة (ماعت) قد اتجهت كما تشير الآثار إلى العرش، ثم استدارت هكذا ـ كما تشير هذه الآثار أيضًا أمامك ـ وجلست على العرش ..

ارتفع حاجبا (نفرو) من خلفهما دهشة وهى تتساءل ..

ـ هل فعلت ذلك حقًا ؟!

هز (محب) رأسه بالإيجاب دون النظر إليها، وحاول بعدها أن يقول :

ـ ثم ..

لكنه أحجم، فاستحثه (حورى) :

ـ ثم ماذا ؟!

ـ لا شىء !

قالها (محب)، فتساءلت (نفرو) مستغربة :

ـ لا شىء كيف ؟!

هز (محب) كتفيه قائلاً :

ـ لاشىء هكذا .. إنها لم تغادر العرش بعد أن جلست عليه !

قطب (حورى) هاتفًا فى استبعاد :

ـ هذا مستحيل .. تخريف ..

توقع (محب) قوله فلم يتضايق وهو يقول :

ـ انظر، لو كانت قد نهضت بعدها لكنا رأينا آثار النعال العكسية تسير إلى الخارج .. أليس كذلك ؟!

اندفع (حورى) يهتف دون تفكير :

ـ ربما خلعت النعال قبل أن تنهض من فوق العرش ..

فاعترضه (محب) على الفور :

ـ كنا سنرى آثار قدميها المجعدتين .. فكر قليلاً قبل أن تتحدث يا صاحبى ..

نظر إليه (حورى) فى غضب وهو يتساءل :

ـ ماذا تريد أن تقول يا (محب) ؟! هل طارت من فوق العرش إلى السماء أم ماذا ؟! إن البشر ليست لهم أجنحة لو كنت فى حاجة لمن يذكرك بأمر كهذا ..

ترددت (نفرو) للحظة قبل أن تقول :

ـ ربما هناك مخبأ ما فى داخل العرش مثلاً !

طرق (محب) بقبضته على العرش قائلاً :

ـ إنه حجر صلد كما ترين ، ولا يحتمل أن يكون مجوفًا من الداخل .. ثم إنه مكان سيئ للاختباء لو كانت الكاهنة (ماعت) تريد أن تلعب معنا كما يفعل الأطفال !

أطرقت (نفرو) مغمغمة :

ـ لكن هذا محير بالفعل ..

اندفع (حورى) هاتفًا :

ـ لكن حل هذا اللغز بسيط بالفعل ..

ضيق (محب) عينيه متسائلاً :

ـ كيف ؟!

على الفور أجابه (حورى) :

ـ بسيطه .. سنعيد التجربة ..

وتحرك (حورى) على الفور ..

تراجع إلى الخلف عدة خطوات ، ووضع قدمه فوق أول أثر لقدمى الكاهنة (ماعت) قائلاً :

ـ لقد كانت تقف هنا .. جميل ..

وسار فوق الخطوات المطبوعة على التراب فى حرص ، تتابعه عينا (محب) الضائقتان ، وعينا (نفرو) الكحيلتان :

ـ .. ثم سارت هكذا فى اتجاه العرش .. لابد أنها كانت تسير بحركة أبطأ من حركتى بفعل السن ، لكن لا بأس .. لن يصنع هذا فارقًا على ما أظن ..

سار (حورى) وسار ، حتى توقف أمام العرش مباشرة :

ـ .. هنا تتم الحركة الدائرية ، وهكذا تستدير الكاهنة مستعدة للجلوس على العرش ..

واستدار ، ثم :

ـ .. ثم تجلس على العرش ، هكذا ..

جلس (حورى) ، وتابعته العيون ..

دون أن يحدث أى شىء :

ـ أرأيتما ؟!

قالها (حورى) فى استسخاف ، فسأله (محب) :

ـ هذا رائع ، ولكن .. أين يمكن أن تكون الكاهنة (ماعت) قد اختفت بعدها ؟!

فرد (حورى) ذراعيه هاتفًا :

ـ ومن أين لى أن أدرى ؟! هأنذا أمامكما ، دعونا نفكر ..

ران الصمت ، أسند (حورى) فى خلاله مرفقيه على مسندى العرش ..

صمت ، وتفكير ، لم يشعر (حورى) فى أثنائهما ـ تمامًا ـ بأن كوعه قد حرك شيئًا ما فى مسندى العرش ..

ـ هذا محير فعلاً ..

غمغمت بها مرة أخرى وهى تجاهد للوصول إلى بعض المنطق ، عندما اندلع الضوء فى دفقة باهرة من أعلى سقف القاعة فجأة ، فوق رأس (حورى) مباشرة ..

(حورى) الذى لم يع من أمر نفسه شيئًا بالمرة ..

ـ لا ..

ندت عن (محب) ..

ـ (حورى) ..

صرخت بها (نفرو) ..

وانتهى كل شىء كما بدأ ، فجأة ..

فى لحظة عاد كل شىء كما كان ..

الهدوء والوداعة والتراب والعرش ..

لكن (حورى) لو يكن هناك بالمرة ..

ـ أين ذهب ؟!

غمغم بها (محب) فى رعب ، فيما اتسعت عينا (نفرو) فى هلع ..

وشقت صرختها سماء القاعة ..

لقد اختفى (حورى) أيضًا ..

اختفى ، خلف الجدار الأبيض !

★ ★ ★

٤ـ أســـــير ..

الضوء الأزرق دوامة تحتويه ، وتلتف حوله من جميع الجهات ..

شرنقة متوحشة تمتصه فى داخلها ..

تدور به .. وتدور .. وتدور ..

لا يرى من حوله شيئًا إلا الضباب ..

ثم السواد ..

ثم ..

فتح (حورى) عينيه أخيرًا ..

★ ★ ★

شمس النهار لم تكن لطيفة إلى هذا الحد ، وماء المستنقع ليس راكدًا إلى هذا الحد ، وأعواد البوص ليست كثيفة إلى هذا الحد ..

إنها الحرب إلى هذا الحد وأبعد ..

هكذا فتح (حورى) عينيه أخيرًا ليجد نفسه فى أتون

ملتهب من الغبار ، والصيحات ، والطعنات ، والخيول ، والركض ، والأسلحة البدائية ..

إنها الحرب إلى هذا الحد وأبعد ..

أين هو الآن ؟!

ليس هذا وقت الأسئلة ، إنه ممدد على الرمال ، وهناك حوافر مقتربة إلى حد أنها تكاد تنغرس فى رأسه ؛ لهذا عليه أن ينهض بأقصى سرعة ..

فعلها (حورى) فى لمح البصر ، ومرت الخيل فى نفس موضع الرأس محتكة بظهره ..

تلفت (حورى) حوله ..

أين أنا الآن ؟!

ليس وقت الأسئلة مرة أخرى ، فها هو حصان آخر يمرق من أمامه ، وعليه أن يقفز من طريقه قبل أن يتحول إلى لحم مهروس لم ينتزع منه العظم ..

قفز (حورى) بسرعة واقفًا ، ومر الحصان فى نفس موضع جلوسه منذ لحظة ..

مرة أخرى أخذ يتلفت حوله بعينين يغشاهما الرعب المبين ..

أين هذا المكان ؟!

ـ احترس ..

ند النداء من خلفه ، بلهجة غريبة قليلاً ، لكنه استدار ليلمح دبوسًا حجريًا ينهال على رأسه ، وكان عليه أن يتفاداه بأقصى سرعة ..

أمسك على الفور بصاحب الذراع الممتدة نحوه من فوق حصان ، وجذبه نحوه فى قوة ، فسقط الرجل على الأرض مفلتًا دبوسه الحجرى ، وفوجئ (حورى) به يركله فى ساقيه بكل قوة ..

تألم (حورى) ، وكانت فترة ألمه هذه كافية ليتحرك الساقط ممسكًا بدبوسه من جديد ، فيقفز ناهضًا وينهال على (حورى) بالدبوس من جديد ..

أدمى الدبوس ظهر (حورى) ، واستعد الرجل لينهال به على الرأس حيث تكمن الحياة ..

لكن (حورى) كان مستعدًا ..

أمسك بذراع الرجل ثانية وأرداه أرضًا بحركة رشيقة ، وأفلت الدبوس من يده ، ثم ..

ثم انهال به على رأس الرجل ليشجه فى الحال ..

إنها الحرب حيث لا حلول وسطى ..

تقتُل ، أو تُقتَل ..

ـ .. أحسنت يا رجل ..

ند الهتاف عن صاحب صيحة التحذير منذ قليل ، الذى رأى (حورى) يقف لاهثًا ، ممسكًا بالدبوس الملوث بالدم ، وهو عاجز عن فهم أى شىء مما يجرى حوله ..

ترى ، متى يحين وقت الأسئلة ؟!

ثم ، هل هذا ـ المترامى من بعيد ـ قرع طبول حقًا ؟!

ـ .. سيكافئك الملك (مينا نعرمر) شخصيًا كما أتوقع ..

رفع (حورى) بصره إلى صاحب الصوت ، فرأى شابًا ذا وجه ضاحك ، ملابسه ملوثة بالدم فى جلسته على صهوة جواد أصيل ، وقد أنهكة القتال على ما يبدو ..

لحظة ، الملك من ؟!

ـ .. افخر بنفسك يا رجل ، فقد قتلت أحد أمهر فرسان (بوتو) .. لقد أعيانا اصطياده طوال المعركة وقضيت عليه أنت بضربة واحدة .. أى شرف !

ما هذا الذى يحدث ، كيف وأين ومتى و .. وماذا ؟!

تلفت (حورى) حوله فى رعب يتعاظم ، بينما قرع الطبول يعلو ويقترب ..

ضحك الشاب على الجواد فى نشوة ، وهو يهتف :

ـ .. مرحى ، إنه النصر أخيرًا .. هذه طبول النصر ، طبولنا .. بعد قتال السنين ندخل عاصمة الشمال أخيرًا .. هيا ابتهج يا رجل ..

إنه ..

إن (حورى) ..

إننى فى عصر الملك (مينا نعرمر) ، موحد القطرين ، فى نفس لحظة توحيد القطرين !

هكذا فكر (حورى) برغم أن الفكرة لم تكن مهضومة على الإطلاق ..

على الإطلاق !

قفز الشاب من فوق جواده ، ومد يده طامعًا فى مصافحة (حورى) :

ـ .. أنا (إيب) جندى فى جيش الملك (مينا نعرمر) ، لم أرك بيننا فى صفوف المقاتلين من قبل ، لكنك مقاتل فذ حقًا ، ويشرفنى أن أتعرف عليك وأصافحك ..

نظر (حورى) إلى يد (إيب) الممتدة وهو عاجز عن التصديق ، وربما كان عاجزًا عن التنفس أيضًا كما يشى اتساع عينيه إلى حد الجحوظ ..

ومن قريب ند الهتاف الأجش :

ـ من هذا يا (إيب) ؟!

التفت (إيب) إلى الصوت وقد جنب يده الممتدة فى سرعة دون أن يصافح (حورى) ، وارتسم الوجل على ملامحه إذ قال متلعثمًا :

ـ إنه .. إنه .. من قتل فارس الشمال (خيتا) أيها القائد ..

نظر (حورى) إلى صاحب الصوت ، وكان رجلاً سمينًا إلى حد الضخامة يقترب بين الخيول والجثث والمعدات المترامية ، ومن خلفه عشرة فرسان لا أقل ..

ـ لم أره بين صفوف مقاتلينا من قبل ..

قالها الضخم متوقفًا أمامهما ، ونظر مليًا إلى (حورى) قبل أن يتابع :

ـ .. أنت تعرف أننى أحفظ جنودنا وضباطنا واحدًا واحدًا ..

تراجع (إيب) خطوتين وهو يقول فزعًا :

ـ لا أعرفه أيها القائد ، رأيته الآن فقط ..

ـ حسن ..

قال الضخم الذى يناديه (إيب) بالقائد ، ثم خاطب (حورى) سائلاً :

ـ .. من تكون ؟! ومن أين أنت أيها الفارس ؟!

لم يحر (حورى) جوابًا ، فعقله لم يزل مشلولاً أمام كل ما يحدث !

ـ .. تكلم .. من أنت ؟!

تحرك لسان (حورى) ، ربما ليتأكد فقط من قدرته على أنه ما زال قادرًا على النطق :

ـ (حورى) ..

انعقد حاجبا الضخم الكثين ، وقال :

ـ هذا اسم يستخدمونه بكثرة فى الشمال ، أنت منهم إذن !

حاول (إيب) أن يتدخل :

ـ لكن أيها القائد ...

ـ سأعطيك فرصة ..

قالها الضخم فى صبر ، ثم أردف معطيًا الفرصة :

ـ .. لو كنت من الجنوب ـ من جيشنا هذا أعنى ـ فلابد أنك تعرف اسمى ، جنود الجنوب فقط هم الذين يعرفون اسمى ، بصفتى قائدًا تاليًا للملك .. ما اسمى يا فتى ؟!

صمت ..

ـ أرأيتم ؟! كنت محقًا إذن .. إنه من الشمال ، اقبضوا عليه ..

تحفز الفرسان الواقفون خلف الرجل ، واندفع (إيب) يهتف :

ـ لكنى رأيته يقتل فارس الشمال أيها الـ ....

صاح فيه القائد بمنتهى العنف :

ـ اصمت أو أقبض عليك معه ..

لزم (إيب) الصمت ، بينما أشار الضخم إلى (حورى) زاعقًا فى رجاله :

ـ .. اقبضوا على جاسوس الشمال هذا ، الآن ..

اندفع الرجال نحو (حورى) الذى توترت عضلاته ، وأخذ يكيل اللكمات والركلات للرجال العشرة ، بينما صاح الضخم :

ـ .. إنه يقاوم ، يريد الهرب .. لا تدعوه يفلت منكم ..

لكم (حورى) الأول فى وجهه ، وركل الثانى فى بطنه ، ولكن ..

الكثرة تغلب الشجاعة منذ عهد الملك (مينا نعرمر) تقريبًا ، وربما من قبلها بكثير ..

تكالب الفرسان على (حورى) فكبلوه ، وحملوه حملاً خلف الضخم الذى أشار لهم بضمه إلى صفوف الأسرى ..

واستكان (حورى) أخيرًا ، فقد وجدها فرصة لكى يرتب أفكاره المشوشة ..

وإن كان يشك فى أنه سيفهم شيئًا مما جرى ..

أو مما يجرى !

★ ★ ★

شمس الظهيرة اللاهبة ، حرارة ورطوبة وبقايا حرب ..

رفع (حورى) إناء الماء الفخارى وروى ظمأه ، ومن جلسته مقيدًا بين الأسرى أخذ ينظر حوله ، دون أن يفهم ما الذى أتى به إلى هنا ..

هذا المكان وهذا الزمان ..

كيف يمكن أن يحدث هذا ؟!

من خلفه سمع من يناديه بصوت خفيض للغاية :

ـ بس ، أنت أيها الفار .. أعنى أيها الأسير ..

لم يستطع (حورى) الالتفات إلى محدثه بسبب القيود التى تكبل حركته ، لكنه سأل :

ـ من ؟!

ـ صه ..

الصوت الخفيض مألوف :

ـ .. اخفض صوتك حتى لا ينتبه أحد إلى أننى أكلمك .. أنا (إيب) الفارس الذى رآك منذ قليل تقتل ....

قاطعه (حورى) مخفضًا من صوته :

ـ ماذا تريد منى ؟!

همس (إيب) :

ـ أريد مساعدتك .. أشعر بأنك شجاع ولاتستحق أن تعامل كأسير .. لقد رأيت بنفسى شجاعتك فى صرع فارس الشمال ، ربما لولا هذا ما كنت لأفكر فى مساعدتك ..

تساءل (حورى) دون أن تبدو فى نبرته أى آثار امتنان :

ـ ستفك وثاقى ؟!

هز (إيب) كتفيه من خلف ظهره ـ دون أن يراه (حورى) يفعلها بطبيعة الحال ـ وقال :

ـ ولِمَ لا ؟! على أن تعدنى بأن تهرب بسرعة قبل أن يلحظ أحد عدم وجودك ..

ـ أخبرنى أولاً ..

برقت الفكرة فى دماغ (حورى) فتسللت إلى لسانه على الفور :

ـ .. هل لديكم أسرى من النساء ها هنا ؟!

صمت (إيب) للحظة مفكرًا قبل أن يسأل :

ـ إماء تعنى ؟!

ـ ليس بالمعنى المفهوم ..

وفسر (حورى) :

ـ ألم تظهر عجوز فجأة فى صفوفكم وتأخذونها فى صف الأسرى ؟!

ـ العجوز المباركة تعنى ؟!

ـ فى الغالب هى من أتحدث عنها ..

ـ لقد ظهرت فى معسكرنا أمس بـالفعل ، وأخذت تعطف على الجنود وتسقيهم بيدها وعلى مقدمها أمطرت السماء وعم الخير ، فتفاءل الملك (مينا نعرمر) بها وأمر بإكرامها فى خيمة خاصة ، لا يسمح لأحد بالاقتراب منها ..

هتف (حورى) لنفسه :

ـ الكاهنة (ماعت) .. إنها هى دون سواها ..

قال (إيب) بنفس النبرة الخفيضة التى يتحدث بها :

ـ تصور أننى لم أفطن للتشابه بين ظهورك وظهورها إلا الآن .. أنت ظهرت فجأة وهى ظهرت فجأة ، وأنتما الاثنان كنتما بشير النصر ، كأن الآلهة أرسلتكم لتقفوا إلى جوارنا ..

غمغم (حورى) متهكما :

ـ الآلهة التى تتحدث عنها لا ترسل أحدًا ، لقد تم كل شىء بطريق الخطأ ..

عاد (إيب) يهمس :

ـ لا أفهم ما تقوله ، لكنى قد أساعدك أيضًـا إن أردت أن ادلك على خيمتها ..

انشرح وجه (حورى) لوهلة ، وقال :

ـ فى هذه الحالة يجب أن أكون ممتنًا لك يا سيدى ..

ـ لا تقل ذلك .. الشرف لى بمساعدتك يا مبعوث الآلهة ..

قالها (إيب) ثم اقترب من (حورى) وهم بفك وثاقه ، متلفتًا يمنه ويسره فى كل لحظة ليتأكد من أن أحدًا لا يراه من بعيد أو قريب ..

لحسن الحظ الغالبية مشغولون الآن فى جمع الغنائم وتنظيف ساحة المعركة ، ومطاردة آخر الفلول الهاربة من جيش الشمال المهزوم ..

تحررت يدا (حورى) وقدماه، ونهض ساترًا خلف (إيب) على أطراف قدميه بين الأسرى والجثث، متلفتًا فى حذر بدوره، حتى بلغا تجمعًا لخيام القادة ..

من خلف إحدى الخيام أشار (إيب) إلى خيمة خضراء قريبة :

ـ هناك .. هذه خيمة العجوز المباركة ..

ـ أشكرك يا رجل ..

قالها (حورى) فى امتنان حقيقى، لابد أن الكاهنة (ماعت) كما أتت إلى هنا تعرف كيفية الرجوع إلى هناك ..

صحيح أن مسألة هنا وهناك هذه تختلط فى رأسه، لكنه يتعامل مع الوضع والسلام ..

ـ الأسير يهرب ..

الهتاف بصوت أجش، والقائد ضخم واقف أمام باب خيمته التى تشرف ـ لسوء حظهما ـ على المكان الذى يختبئان خلفه ..

ـ .. هلموا إلى يا رجال ...

صاح القائد الضخم مشيرًا نحو مكانهما حتى يراه رجاله الهارعون إليه، فصاح (إيب) فى رعب هائل :

ـ لقد رآنا، سيقتلوننا حتمًا ..

جذبه (حورى) من ذراعه وهو يقول فى عزيمة خارقة :

ـ إذا لحقوا بنا .. هيا، تعال معى ..

انصاح (إيب) كالمغيَّب إلى قيادته، وركض خلفه، وحين قفز (حورى) فوق حصان رابض أمام أحد الخيام، جذب (إيب) من يده وأجلسه خلفه، ثم لكز بقدمه بطن الجواد، وبمنتهى السرعة صهل الأخير وانطلقت سنابكه تنهب الأرض وتثير عواصف الغبار ..

ـ خلفهما، اقتلوهما إن لزم الأمر ..

انطلق الرجال على أقدامهم والخيول خلفهما، امتثالاً لأمر القائد الضخم ..

ـ ما اسم قائدكم هذا يا (إيب) ؟!

تساءل (حورى) وهو يقود الحصان بمهارة فارس حقيقى ، فأجابه (إيب) محاولاً السيطرة على رعبه دون جدوى :

ـ اسمه (سخموى) ..

وجد (حورى) فى نفسه حسًا فكاهيًا دفعه لأن يقول :

ـ جيد أننى لم أكن أعرفه !

وألقى بنظرة خاطفة إلى الخلف ، ليرى الجنود يطاردونه حاملين خناجرهم والرماح ، فعاد للنظر أمامه مغمغمًا :

ـ جيد أيضًا أنهم لم يكونوا قد عرفوا القوس والسهم بعد !

انهالت الحجارة من خلفهم ، فاستدرك (حورى) :

ـ أعنى أن الأمر ليس جيدًا إلى هذا الحد ..

أمطار من الحجارة انهالت عليهما ، أصاب أحدها رأس (إيب) الذى تأوه ، فرفع يده ليتحسس الكدمة ، و ....

اختل توازنه بطبيعة الحال فوق الحصان ..

وسقط على الأرض ..

صرخ (إيب) وهو يراقب جواد (حورى) يبتعد ، ونظر إليه (حورى) بعد أن سقط ليجد أن عودته إليه مستحيلة ..

ـ .. معذرة يا صديقى ..

لكن حجرًا أصاب رأس (حورى) ..

ثم حجر ..

ثم حجر ..

والأخير كان السبب فى سقوطه من فوق الحصان ، برأس مفتوح ينزف دمًا على قارعة الرمال ..

ابتعد الحصان لايلوى على شىء ، بينما رأى (حورى) الفرسان يقتربون ..

ـ يبدو أنها النهاية ..

غمغم بها مستشعرًا ثقلاً غريبًا فى رأسه ..

وثقلاً أغرب فى جفنيه ..

قبل أن ..

تسود الدنيا تمامًا ..

و .....

وتومض فجأة ومضة ساطعة تعشى الأبصار !

★ ★ ★

٥ ـ محاكمة ..

ومضة ساطعة تعشى الأبصار ..

ثم محكمة العالم الآخر منعقدة لاستقبال عائد جديد ..

(حورى) يقف أمام (أوزوريس) رئيس المحكمة ، الجالس خلف المنصة فى ثيابه البيضاء الناصعة ، وبجواره زوجته المحبة (إيزيس) التى تشفع للموتى الخطائين .. من خلفه (أنوبيس) إله الجبانة ينظر بعينى ابن آوى ، ومن أسفله (تحوت) إله الكتابة فى وضع القرفصاء يدون تفاصيل المحاكمة ، ثم أخيرًا ..

(ماعت) ..

إله العدل والتناغم الكونى الجميل ..

واقفة فى الجوار خلف ميزان الحساب ، ممسكة فى يدها بريشة العدل ، وعلى محياها الرقيق ـ العجوز هنا نوعًا ـ بسمة مطمئنة ..

جو رهيب ، والضوء يغشى كل شىء إلى حد العمى ..

(حورى) فى كفنه ، مومياء محنطة ، ومن خلفه قرينه بجناحين صغيرين يحلق فى الجو ، لقد حفظه على الأرض ويحفظه هاهنا أمام المحاكمة ..

المحلفون الاثنان والأربعون جالسون على مقاعد جانبية ينظرون قضيته ، بعدد أقاليم البلاد بحرية وقبلية هم ..

والمحاكمة على وشك الانعقاد ..

هناك باب النعيم ، والسعادة الخالدة ..

وبجواره باب الجحيم ..

وهناك مطهر أيضًا يمكنك الاغتسال فيه من خطاياك ..

إن ديانة قدماء المصريين ثرية إلى حد أنها لم تغفل شيئًا تقريبًا ..

ثم تبدأ الجلسة ..

ويبدأ (حورى) فى تلاوة النصوص المحفوظة من كتاب الموتى :

« سلام عليك يا (أوزوريس) ..

إنى أعرف اسمك ..

وأعرف أسماء الاثنين والأربعين الذين معك فى هذه القاعة ..

قاعة الصدق ..

وهم الذين يعيشون على حيوات الخاطئين ..

ويلتهمون دماءهم فى يوم الحساب العظيم ..

انظر ..

لقد أتيت إليك ..

إننى أحضر العدالة إليك وأقصى الخطيئة عنك ..

إنى لم أرتكب ضد الناس أى خطيئة ..

إنى لم آت سوءًا فى مكان الحق ..

وإنى لم أعرف أية خطيئة ..

إنى لم أرتكب أى شىء خبيث ..

وإنى لم أبلغ ضد خادم شرًا إلى سيده ..

وإنى لم أترك أحدًا يتضور جوعًا ..

وإنى لم أتسبب فى بكاء أى إنسان ..

وإنى لم أرتكب القتل ..

ولم آمر بالقتل ..

ولم أسبب تعسًا لأى إنسان ..

ولم أنقص من قرابين الآلهة ..

ولم أغتصب طعامًا من قربان الموتى ..

إنى لم أرتكب الزنا ..

إنى لم أرتكب خطيئة تدنس نفسى داخل حرم البلدة الطاهرة ..

إنى لم أخسر مكيال حبوب ..

ولم أنقص المقياس ..

ولم أثقل وزن الموازين ..

ولم أحول لسان كفتى الميزان ..

إنى لم أغتصب لبنًا من فم طفل ..

ولم أطرد ماشية من مرعاها ..

ولم أنصب الشبك للطيور ..

ولم أمنع المياه عن أوقاتها ..

ولم أضع سدًا للمياه الجارية .. »

صمت يلف القاعة ، ثم ينطق (أنوبيس) :

ـ قتلت نفسًا فى حرب لم تكن حربك ..

ويجيب (حورى) :

ـ كنت أدافع عن حياتى من شخص لم أكن أعرف عنه إلا أنه يريد قتلى ..

يسأل (أوزوريس) فى لين :

ـ راض عن نفسك وحياتك ؟!

يجيب (حورى) فى صراحة :

ـ أبعد ما أكون عن هذا الرضا ، حتى الابتهال الذى ألقيته منذ قليل لا أجد فى نفسى الرضا التام عنه ..

يسأل (تحوت) :

ـ وما الذى أتى بك إلى هنا إذن ؟!

يجيب (حورى) :

ـ شج فى رأسى ، والبحث عنها ..

ـ عمن !

ـ (ماعت) !

تشير الأصابع إليها أمام الميزان :

ـ ها هى ذى ..

وتمد (ماعت) يدًا طويلة نحوه ، فلا يجد فى فى وسعه المقاومة :

ـ لابد من وزن القلب ، ففى القلب تكمن كل الفضائل والخطايا ..

تنغرس يدها فى صدره وتخرج بالقلب ؛ آخر ما تبقى فى عملية التحنيط ..

تضع القلب فى كفة ، وتضع ريشتها فى كفة ، فتتساوى الكفتان ..

تقول (ماعت) :

ـ لا للنعيم ، ولا للجحيم !

تقول (إيزيس) فى إشفاق :

ـ ابن مسكين ، أرى أن نشمله ببعض عطفنا ..

يقول (حورى) :

ـ جئت بحثًا عن (ماعت) ..

فى إشفاق تقول (إيزيس) :

ـ وفى هذا بعض الفضيلة لو تعلمون ..

تبتسم (ماعت) فى طيبة ..

ـ هأنذا ..

يحاول (حورى) الاقتراب منها ولا يستطيع :

ـ ستعودين معى الآن إلى (منف) ، إلى معبد (أوزوريس) ..

تنظر (ماعت) حولها وتقول :

أين أنا الآن إذن ؟!

يلح (حورى) فى السؤال :

ـ لن أعود إلا بك .. لن أستطيع العودة إلا وأنتِ معى ..

تبتسم (ماعت) أكثر :

ـ لكنى معك بالفعل ، بالإضافة إلى أنى هناك أيضًا ..

(حورى) فى حيرة :

ـ لا أفهمك ..

تقول (ماعت) :

ـ إنهم يبحثون عنى وأنا بينهم لأنهم لم يرونى !

الحيرة تكبر :

ـ لكنك هنا الآن ..

والجواب يفسّر :

ـ هنا وهناك وفى كل مكان .. إن (ماعت) هى التناغم الكونى يا فتى ؛ لذا فهى تسكن كل عين وكل قلب وكل روح ووجدان أبيض .. إنها خلف كل جدار أبيض !

تردد :

ـ (ماعت) ، أنت أم هى ؟!

حسم :

ـ (ماعت) أنا وأنت وهى وهو وهم وهن ونحن جميعًا ..

حزن :

ـ ليتنى أفهم ..

تأكيد :

ـ ستفهم ، فقط عندما تبحث فى قلبك عنى .. عن (ماعت) ..

دهشة :

ـ فى قلبى أنا ؟!

تعاطف :

ـ قلبك أبيض ، وأنا خلف كل جدار أبيض ..

استفهام :

ـ وكيف يبحث المرء فى قلبه عن (ماعت) ؟!

جواب :

ـ كما يبحث فى الصحراء عن قطرة ماء ..

استفهام آخر :

ـ وكيف يجدها ؟! يجدك ؟! يجد (ماعت) ؟!

جواب آخر :

ـ بالإرادة .. إذا أردت أن تجدنى فستجدنى مهما تصورت أنى بعيدة عنك ..

يشرق الوجه الشاحب أخيرًا :

ـ ستعودين معى إذن ؟!

ويشرق الوجه المشرق ؛ وجه (ماعت) :

ـ بالتأكيد ..

تمد يدها نحو (حورى) بالقلب النابض :

ـ .. خذ قلبك ، وابحث فيه بتأنٍّ .. تراني فيه قبسًا من نور لا ينطفئ ..

(أنوبيس) يشعر بالضجر من طول المحاكمة :

ـ والحكم ؟!

(إيزيس) ما زالت مشفقة :

ـ أطلب للفتى البراءة ..

(أنوبيس) فى لامبالاة :

ـ وأنا أطالب بالجحيم ..

(تحوت) يكتب ويتحدث :

ـ وأنا أرى أن نمنحه فرصة أخرى ..

(ماعت) تؤيد :

ـ فرصة أخيرة ، عله يجدنى ..

(أوزوريس) :

ـ حان وقت القول الفصل ..

ينبض قلب (حورى) فى يده ..

يخفق بقوة الترقب ..

وانتظار نتيجة الامتحان ..

(أوزوريس) :

ـ سنمنحك فرصة أخرى وأخيرة ، علك تجد (ماعت) بين جوانحك يا فتى ..

(ماعت) فى ثقة :

ـ سيجدها ..

(أنوبيس) فى ثقة :

ـ هيهات !

(تحوت) فى ثقة :

ـ من يدرى ؟!

(إيزيس) فى ثقة :

ـ رفقًا به ..

(أوزوريس) ينهض فى ثقة ، ويشير بكفه نحو (حورى) :

ـ عد ..

الثقل الغريب فى الرأس ..

الثقل الأغرب فى الجفنين ..

قبل أن تسود الدنيا تمامًا ..

و ....

تومض فجأة ومضة ساطعة تعشى الأبصار !

★ ★ ★

٦ ـ مينـــا ..

فتح (حورى) عينيه ليجد نفسه أمام رجل ذى هيئة مألوفة ..

وعندما انقشع ضباب عقله الكثيف ، استطاع تمييز الرجل ذى الهيئة المألوفة الجالس أمامه فانتفض من نومته مفزوعًا ..

ـ رائع ، يبدو أنك قد أفقت أخيرًا أيها الأسير الهارب ..

عينان واسعتان ناعستان ممتلئتان بالقوة وبالعنفوان .. أنف أقنى لا هو بالكبير ولا هو بالصغير لكنه يحمل فى تعاريجه شموخ وإباء .. فم جنوبى غليظ واسع قليلا .. عظام الوجه بارزة وعضلات الكتف والرقبة مشدودة .. لحية خفيفة على الوجنتين والذقن ..

ـ الملك (مينا نعرمر) بنفسه ؟!

هتف بها (حورى) وعيناه تأبيان التصديق ، وعقله يرفض الانصياع للفكرة المجنونة ..

يالها من لحظة تاريخية حقًا !

ابتسم الملك (مينا) قائلاً فى رصانة :

ـ تعرفنى إذن أيها الفتى ؟! هذا يحسن من وضعك كثيرًا ..

كيف أتى إلى هنا ؟! كيف ؟!

سؤال يكاد يفجر مخ (حورى) بلا رحمة !

ـ .. لكنى أريد حقًا وصدقًا أن أعرف من أنت ؟!

حاول (حورى) كبح جماح أنفاسه قائلا :

ـ أنا .. جندى .. جندى يا مولاى ..

قطب الملك متسائلا فى هدوئه الباعث على الاطمئنان :

ـ جندى فى أى جيش ؟!

أنقذت قريحة (حورى) الموقف :

ـ جندى مرتزق .. أجير .. أدافع عن من يدفع لى أجرى ..

فكر (مينا نعرمر) للحظة قبل أن يغمغم :

ـ مهنة عجيبة لم أسمع عنها من قبل ، لكن مهاراتك تؤكد أنك جندى بالفعل ..

فى تردد قال (حورى) :

ـ هناك من أرسلنى يا مولاى من أجل إرجاع المرأة المباركة !

هز (مينا نعرمر) رأسه فى تفهم وهو يقول :

ـ هكذا تتضح الأمور إذن .. إن هذه المرأة التى تسمى نفسها (ماعت) تخص أحدًا أرسل للبحث عنها ..

هتف (حورى) وقد بلغ هدفه بصعوبة :

ـ هذه هى الصورة بوضوح ودون تنميق يا مولاى ..

تساءل (مينا نعرمر) بعد هنيهة أخرى من التفكير :

ـ من أرسلك ؟!

أنقذت قريحة (حورى) الموقف مرة أخرى :

ـ ليعفنى مولاى بكرمه من ذكر اسمه ، فأخلاقيات الجندى الأجير تمنعه من ارتكاب هذه الفعلة مهما حدث ..

عاد (مينا نعرمر) يهز رأسه قائلا :

ـ أحب من يحترم أخلاقياته ..

ثم إنه أردف مستطردًا :

ـ .. كان من حسن حظك انك لم تلق حتفك حين وقعت

من فوق الحصان ، وكان من حسن حظك أيضًا أن الكثيرين رأوك تهرب ، وأن الأنباء بلغتنى قبل أن يجهز عليك (سخموى) ورجاله فاستطعت اللحاق بالموقف ..

قال (حورى) فى اعتراف بالجميل :

ـ مهما قلت فلن أعرف كيف أعبر عن مدى شكرى وامتنانى ..

وأردف (حورى) قبل أن ينسى :

ـ أريد أيضًا ـ إن أذن لى مولاى ـ أن أشفع للمقاتل طيب القلب الذى أنقذنى من الأسر ..

باسمًا سأله الملك :

ـ (إيب) ؟!

بالإيجاب أجاب (حورى) :

ـ هو بعينه ..

ضحك الملك وقال :

ـ كنت سأعفو عنه دون شفاعة أيها الجندى الأجير ، فهو لم يرتكب خطأ عندما حرر رجلاً وقف إلى جوارنا فى

الحرب .. وسأعرف كيف أنزل عقابى بـ (سخموى) الغبى على الأخطاء التى اقترفها طوال فترة الحرب وبعدها ..

قال (حورى) وهو يتحسس جراح رأسه المضمدة :

ـ أنصحك ـ إن كان لى أن أنصح عظيمًا مثلك ـ بالترفق فى الأمر كله يا مولاى ..

ربت (مينا نعرمر) على كتفه ، وقال باسمًا فى إعجاب غير خفى :

ـ لو تقبل بالعمل فى صفوف جنودى ، فسأمنحك القيادة التى تطلبها يا فتى .. فالمرء لا يقابل الكثيرين من أمثالك فى حياته ..

ابتسم (حورى) للفكرة فى أعماقه ، وقد تخيل نفسه قائدًا لجيوش الملك (مينا نعرمر) شخصيًا ..

يذكر التاريخ أنه سيحارب (التحنو) و (التمحو) ، وستكون حربًا طاحنة تنتهى بهزيمتهم شر هزيمة وقتل قائدهم (داسبت) ..

ـ أشكرك جزيل الشكر الذى يستحقه من هو مثلك يا مولاى ..

يا لها من فكرة !

ـ .. لكنى فى الواقع ـ وأرجو أن يفهم مولاى الكلمات على محملها الصحيح ـ أنتمى إلى مكان آخر يختلف عن هذا كثيرًا ..

ـ أرى هذا ، لك مطلق الحرية فى القبول أو الرفض ..

قالها الملك (مينا) ناهضًا من جلسته ، ثم تابع :

ـ .. إن كانت لك القدرة على النهوض الآن ، فدعنى أرشدك إلى مكان العجوز المباركة التى تطلق على نفسها اسم (ماعت) ..

قفز (حورى) من فوق السرير الوطىء الذى ينام فوقه ، وتبع الملك (مينا نعرمر) حتى مخرج الخيمة هاتفًا :

ـ بالطبع لى ألف قدرة يا مولاى ..

قال (مينا) وهو ينظر إليه باسمًا :

ـ أراك متعجلاً الرحيل ..

ـ نوعًا ما يا مولاى ، لا أستطيع إنكار هذا ..

قالها (حورى) مبادلاً البسمة بأفضل منها ، فأشار له الملك (مينا) بيده :

ـ اتبعنى إذن ..

تبعه (حورى) خارجًا من الخيمة ، وفى الخلاء بالخارج تابعته عيون الجميع ..

رأى (سخموى) ينظر إليه فى سخط ..

ورأى (إيب) يشير فى سعادة من بعيد ..

ورأى الجنود والأسرى جميعًا ينظرون نظرات ذات مشاعر متباينة ..

حتى أشار له الملك (مينا) نحو الخيمة الخضراء البعيدة :

ـ هاهى ذى ، اذهب إليها ..

قال (حورى) فى امتنان عظيم :

ـ لا أعرف كيف يمكن أن أشكر مولاى على كل هذا ..

قال (مينا) فى تبسيط محبب :

ـ هيا يا فتى ، لا تضع وقتًا واذهب إليها قبل أن أغير رأيى ..

هرع (حورى) إلى الخيمة الخضراء ..

توقف أمام بابها ..

فكر طويلاً ..

أقدم وأحجم ..

تردد مرات ..

ثم حسم أمـره فـى النهايـة ودلـف بقلـب ينبـض فـى قـوة خارقة ..

الخيمة فى الداخل مظلمة نوعًا ما ، تفتقد إلى الإضاءة ..

رطبة تفتقد إلى الجفاف ..

خانقة تفتقد إلى الهواء ..

ليست واسعة ، لذا فقد بحث بعينيه عنها ..

عن (ماعت) ..

وتذكر حلمه عن المحاكمة ..

ابحث عنها فى قلبك ..

ستجد (ماعت) خلف الجدار الأبيض ..

خلف كل جدار أبيض ..

من أين أتته كل هذه الأفكار ليحلم بها ؟!

من أين أتته الرؤى برغم عدم إيمانه بتعدد الآلهة ؟!

نظر حوله مضيقًا عينيه حتى يرى أفضل ..

وهناك ..

هناك فى الركن البعيد ..

لمحها متكومة على نفسها ..

لم تمكنه العتمة من التمييز جيدًا ، لكن ..

إنها هى ..

هو واثق من أنها هى ..

قلبه يخبره بأنها كذلك ..

تقدم منها باسمًا :

ـ هل أنت حقًا الكاهنة الجليلة (ما عـ....

هنا ، لم يدر ما الذى حدث ..

لـم يشـعر بـأن قدمـه قـد حركـت شـيئًا مـا علـى أرض الخيمة ..

وفجأة ..

اندلع الضوء الباهر فى دفقة هائلة من أسفل إلى أعلى ..

و ...

★ ★ ★

الضوء الأزرق دوامة تحتويه ، وتلتف حوله من جميع الجهات ..

شرنقة متوحشة تمتصه فى داخلها ..

تدور به .. وتدور .. وتدور ..

لا يرى من حوله شيئًا إلا الضباب ..

ثم السواد ..

ثم ..

فتح (حورى) عينيه أخيرًا ..

★ ★ ★

ـ لا ..

ندت عن (محب) ..

ـ (حورى) ..

صرخت بها (نفرو) ..

وانتهى كل شىء كما بدأ ، فجأة .. إن (حورى) لم يكن هناك بالمرة ..

ـ أين ذهب ؟!

غمغم بها (محب) فى رعب ، فيما اتسعت عينا (نفرو) فى هلع ..

وشقت صرخته سماء القاعة ، فى نفس اللحظة التى عاد الضوء يشق العرش من أسفل لأعلى هذه المرة ..

بترت صرختها ، وابتلعت لسانها عندما رأت (حورى) يعود جالسًا على العرش ، كأن شيئًا لم يكن ..

لقد انتهى كل شىء كما بدأ ، فجأة ..

وبدا كل شىء غير مفهوم ..

ـ لقد عاد !

غمغم بها (محب) فى رعب أشد ..

ـ لقد عدت أخيرًا ..

وتساءلت (نفرو) بينها وبين نفسها عن سر صراخها الأول ..

وعن سر الدموع التى انهمرت من مقلتيها دون سابق إنذار ..

وإذا كانت تعرف سرًا لهذين الأمرين بالفعل ، فما لم تعرفه أبدًا هو سر هذه الضمادات التى تزين رأس

(حورى) ملطخة باللون الأحمر الدموى ..

وعن سر الإرهاق الشديد الذى كان فيه ..

بالإضافة إلى اتساخ ملابسه !

★ ★ ★

٧ ـ عيـــون

شمس الغروب اللطيفة تنعكس قرصًا من النحاس على صفحة الماء الراكد ، وأعواد البوص الكثيفة تحجب عن العيون الكثير ..

زورق صغير من البردى ، يتهادى راقصًا فى هدوء بين الأحراش ، بالقرب من طوف مترابط الأخشاب ..

ـ ماذا تقولين ؟! هل وجدوا الكاهنة (ماعت) فى صومعتها حقًا ؟!

هتف بها (محب) مندهشًا فى وقفته بطرف زورق البردى ، فأجابته (نفرو) من وقفتها المنفردة على طوف الخشب :

كأنها كانت هناك طوال الوقت ، هذا ما قيل لى حرفيًا من زميلاتى فى المعبد .. زهرات اللوتس ..

هز (محب) كتفيه قائلاً :

ـ الكثير من الأمور الغريبة تحدث هذه الأيام ..

مالت نحوه (نفرو) فاهتز بها الطوف ، لكنها لم تبال كثيرًا وسألته همسًا :

ـ هل مازال مصرًا على التزام الصمت ؟!

كانت تشير إلى (حورى) الواقف عند الطرف الآخر من الزورق ، ممسكًا بعصا الصيد الرفيعة التى يضرب بها الماء من آن لآن ، فأجابها (محب) هامسًا بدوره :

ـ أجل ، ستكون رحلتنا إلى (طيبة) عصيبة للغاية ، فأنت لا تجهلين ولعى بالثرثرة !

نظرت (نفرو) إلى (حورى) بعينين ترقرق فيهما الماء ، ثم قالت كأنها تحدث نفسها :

ـ أشعر بأنه قد قضى وقتًا مريرًا .. الكثير منه !

مستنكرًا قال لها (محب) ، وهو يجاهد للحفاظ على نبرته الخفيضة :

ـ متى ؟! لقد كنا معًا طول الوقت ولم يغب عن أنظارنا إلا ثانية أو أقل ..

نظرت (نفرو) فى عينى (محب) مباشرة ، وقالت فى استعطاف :

ـ حاول أن تعرف منه ما جرى له يا (محب) .. إن جروح رأسه غير مطمئنه بالمرة ..

لم يجد (محب) مفرًا من القول :

ـ سأفعل ، وإن كان هو وحده من يستطيع إخبارنا بما جرى له ، لو كان يعرف شيئًا من الأصل ..

تراجعت (نفرو) واقفة على طوافها ، ولوحت بكفها لهما قائلة :

خذا الحذر فى طريق العودة ..

سنفعل ..

قالها (محب) وهو يمسك بالمجدافين بادئًا رحلة العودة بالفعل ..

وفى المرة العاشرة التى سأل فيها (محب) (حورى) :

ـ ماذا حدث لك يا (حورى) ؟! لماذا لا تريد الكلام ؟!

انفجر فيه (حورى) ملقيًا بعصا الصيد فى الماء :

ـ هل لو أخبرتك أننى قابلت الملك (مينا نعرمر) شخصيًا ستتركنى لحالى ؟!

صمت (محب) للحظة قبل أن يقول :

ـ فى الحقيقة كلا .. أفضل أن تظل صامتًا على أن أبدأ أنا فى الغناء ..

التقط (حورى) عصاه وعاد يضرب بها الماء والأسماك ، فيما رفع (محب) عقيرته بالغناء :

(.. عندما مررت بدارها

وكان الباب مواربًا

تناهى إلى مسمعى

صوتها غاضبًا

فوددت لو كنت تابعها

حتى توُبخنى

فأتظاهر أننى

طفل يخشى سخطها ..)

ابتعد الزورق فى بطء ، تتابعه من خلف الأحراش عيون كثيرة ..

عيون أنثوية كثيرة ..

عيون زهرات (لوتس) ..

★ ★ ★

[تمت بحمد الله]

مغامرات خيالية من مصر الفرعونية

د . محمد سليمان عبد المالك

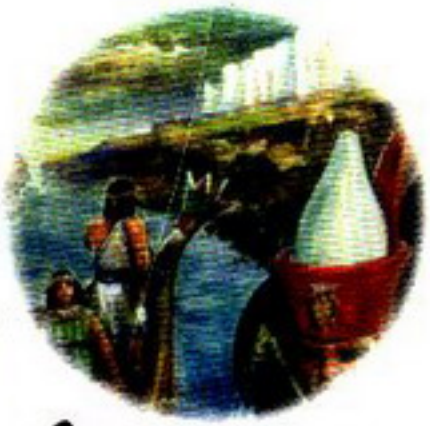

لوتس

خلف الجدار الأبيض

إنهم يذهبون ولا يعودون ..
إنهم يختفون ولا يظهرون ..
إنهم يذوبون فى المدى المستحيل ..
هناك ..
خلف الجدار الأبيض ..!

الثمن فى مصر ٢٥٠
ومايعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

مطابع سلاح التلميذ

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

العدد القادم
(مفتاح الحياة)